رحلة البحث عن الخلود

بقلم الطالب :

أحمد بن علي الصرخي ★

قال تعالى على لسان إبليس لعنه الله :«قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» ● طه:120■.

البحث عن الخلود والقوة.. حلم الإنسان منذ القدم، حلم الوصول إلى إكسير الحياة والشباب، الذي يأخذه الشيخ فيغدو شاباً قوياً من جديد، وتأخذه العجوز الشمطاء فترتد صبية في ثوب الزفاف، ويأخذه الطالب فتتدفق خلايا مخه ذكاءً وعبقرية .. أحلام كثيرة ومحاولات طائلة بدأت منذ اعتكف الكيميائيون في صومعاتهم بحثاً عن إكسير الحياة والشباب والقوة.. ولكن محاولاتهم هذه لم يحالفها النجاح، وأنَّى لها النجاح في تحقيق الخلود؟

ولكن هل توقفت هذه المحاولات بعد فشلها الذريع؟ أم أن هذا الإنسان المكابر مازال يواصل اللعبة.. لعبة البحث عن الخلود؟ الحقيقة أن اللعبة مازالت مستمرة حتى يومنا هذا، والدليل ما تحمله لنا الصحف كل يوم من جديد في سبيل محاولة إطالة عمر الإنسان، ولكن بدلاً من أن يقتصر العلماء في البحث عن المصادر الخارجية؛ إذا بهم يتجهون هذه المرة إلى داخل الإنسان.. ويبدو أن الهندسة الوراثية هي لعبة العلماء في هذا العصر والعصور القادمة في سبيل تحقيق هذه الغاية.. الخلود والقوة.

ولعل آخر ما ابتكره هذا العقل البشري – بما وهبه الله من علم – هو ظاهرة الاستنساخ، والتي يحاول العلماء الآن جاهدين تطبيقها على الإنسان بعد النجاح الذي حققوه مع النبات والحيوان..

يقولون ما أجمل أن يكون لنفسك امتداد، أنت أنت في كل الأزمنة والأمكنة، يقولون ما أروع أن تتواصل سلاسل العباقرة من علماء وأدباء ومخترعين حتى يستمروا في إنتاجهم لتتطور البشرية أكثر وأكثر بفضل هذه العقول النيرة.. ولكن هل هذا حق؟

أما الخلود فلن يكون إلا في دار الخلود وأما امتداد العباقرة فسوف يكون بعقول جديدة ودماء شابة. هذه هي سنة الحياة مادامت الحياة تسير كما أراد لها خالقها، وأما من يعتقد أن هذا من قبيل تحدي المخلوق للخالق فليتذكر أن هذا هو مما يعطيه الله للإنسان ويكشف له ستره، ولن يكون إلا ما أراد الخالق.

والفكرة القادمة التي يلعب عليها علماء الهندسة الوراثية، وإن كانت قديمة إلا إنها فكرة غريبة بكل المقاييس ، يقولون لم لا نأخذ جينة النبات الخاصة والتي تساعده على القيام بعملية التمثيل الغذائي لصناعة غذائه بنفسه، يقولون لم لا نأخذها ونزرعها في... تخيلوا أين؟ بين الجينات الوراثية للإنسان ليخرج لنا الرجل الأخضر، الإنسان القادر على صناعة غذائه بنفسه مباشرة من أشعة الشمس الذهبية، الإنسان الذي لن يهمه البحث عن غذائه لأنه دائماً معه، ولن يصارع الآخرين في سبيل تحصيله لأنه دائماً يملكه!

فكرة لطيفة، وأهداف سامية بالفعل، ولكن هل يمكن أن تتحقق؟ هم يقولون إن لهذه الفكرة أصلاً علمياً لأن هناك نبات اسمه (اليوجيلينا) Euglena تحير العلماء في تصنيفه لأي الطائفتين النباتية أو الحيوانية لأنه يعيش الحياتين حسب الظروف المحيطة به.

ومن أفكار البحث عن الخلود، والتي ذهب ضحيتها بعض المغفلين، فكرة كانت تقول إن الحيوانات ذوات الدم البارد تستطيع التحكم في درجة حرارة أجسامها لتتلاءم مع الجو المحيط فتنخفض درجة حرارة دمائها مع البرودة مثلاً، وبالتالي فإنها تقضي فترة الشتاء القارص في سبات شتوي لا تحس بشيء حتى يحين موعد الربيع.. يقولون لم لا نطبق هذا الفكرة على الإنسان وذلك باستعمال النيتروجين السائل الذي يستطيع أن يجمد الأشياء بسرعة في خلال دقائق معدودة، ولكن ما الفائدة التي ترجونها من وراء فكرة التجميد هذه؟!

يقولون نحن نستطيع بهذه التقنية تجميد الجسد البشري وقت الحياة، بحيث تتوقف عملياته الحيوية، ونحتفظ بعدها بجسده لمئات السنين، ثم نقوم بإذابة هذا الجليد المتراكم عليه، ومن ثم وباستعمال وسائل الإنعاش الحديثة نستطيع إعادة قلبه لينبض من جديد بدماء الحياة، عندها تخيلوا الإنسان وهو يرى نفسه في عصر جديد وحياة جديدة بعد مئات السنين، أو تخيلوا رواد الفضاء الذين سيقضون مئات السنوات الضوئية في سفرهم للكواكب الأخرى ليستيقظوا بعدها من سباتهم على كوكب غريب دون أن تؤثر فيهم السنون التي قضوها في السفر، الفكرة غريبة بالفعل، وقد لا تتعدى أن تكون إحدى شطحات كتّاب الخيال العلمي، ويُقال هذه الفكرة قد طُبقت على بعض المتبرعين المتلهفين لرؤية المستقبل، ولكن لأن الإنسان ليس من ذوات الدم البارد فقد قتلتهم البرودة القارصة حتى قبل أن يتجمدوا ولا عزاء لهم بالطبع.

ومن الصرعات التي ظهرت قبل عدة سنوات، صرعة عقار الميلاتونين – وهو نفسه الهرمون الذي تفرزه الغدة الصنوبرية في المخ – هذا العقار الذي قيل عنه إنه يشفي كل الأمراض، ويزيد مناعة الجسم، ويضاد الأكسدة الضارة التي تحدث في الجسم – والتي ينتج عنها بعض المواد الضارة والتي قدتسبب تصلب الشرايين والأورام – ويضبط الساعة البيولوجية للإنسان فلا يتأثر نومه عند الرحلات الطويلة و .. وغيرها كثير مما نُسب لهذ العقار من الفوائد والتي لم تثبتها المعامل بشكل قاطع حتى الآن، إلا أن كثيراً من الناس في الغرب بدؤوا باستعمال هذا العقار دون وصفات طبية، إنه البحث عن الخلود، الحلم القديم المتجدد دائماً.

هذا الإنسان، وإن خبت لديه جذوة الحماس في البحث عن الخلود، فإنه لا يفقد الأمل إطلاقاً، بل هو يحول هذا الجهد إلى اتجاه آخر ألا وهو البحث عن القوة، كتعويض عن الفشل الذي لم يحققه في الخلود، هكذا لتظهر لنا أسطورة (السوبرمان) الرجل القوي الذي لا تحده حدود ولا توقفه حواجز، رغم أنه لا يعدو أن يكون أكثر من حبر على ورق إلا أن الناس تفاعلت معه .. لكن لماذا؟

هذا لأنه يدغدغ حب القوة في جيناتهم، ويحرك فيهم غريزة الحياة والبقاء. ثم ظهرت صرعة الفيتامينات ليبلع منها المغفلون – وما زالوا – الأطنان بحثاً عن القوة والشباب، وظهرت الهرمونات التي تبني العضلات، لتصبح صرعة الشباب الجديدة في البحث عن القوة والمنظر المتناسق، وليقلدوا تلك الكتل المتحركة من أبطال الأفلام، وما دروا أن هذه الهرمونات تفتك بهم في صمت وهم مازالوا يبحثون عن القوة.

حتى المخدرات والخمور المحرمة، هناك من الناس من يتجه إليها لا بحثاً عن النشوة المحرمة؛ بل بحثاً عن القوة الزائفة، خاصة من الأشخاص ذوي الشخصيات الضعيفة، فهم عندما يتناولون هذه المسكرات فإنه يتم إطفاء مكابح المخ الداخلية لتتحرر العقول من عقالها! فيصبحوا عندها عنيفين سخيفين لا يردعهم رادع من خلق أو دين، إنها القوة التي يبحثون عنها لتعويض ذلك النقص في نفسياتهم المريضة، ومنهم من يستعملها بحثاً عن القوة الجنسية التي لا تلبث كثيراً أن تنطفيء مع هذه السموم. وبالخطأ والصدفة البحتة تظهر الحبة الزرقاء، لتحيي أمل القوة من جديد في نفوس قد لفها اليأس، وإذا بالدنيا تقوم ولا تقعد، لقد أصبحت مشغلة الدنيا والناس.. ولا عزاء للمتنبي.

هذا هو الإنسان في بحثه الدؤوب عن الخلود والقوة، يدفعه في ذلك حب البقاء، وغريزة الحياة، ولكن أنى له الخلود إلا في دار الخلود.

★ كلية الطب